

الفصل الثالث

الفلسفة الأولى

يحدأرسطو الفلسفة الأولى بأنها العلم الذي ينظر فيما هو أيس ،
أى فيما هو موجود بالفعل فقط . أى فى صفة الوجود الذى له وفى
خواصه بما هو كذلك ، . أما كون علم موجودا هناك بهذه المرتبة
والكيفية ، أو يجب أن يكون هناك فتؤكد مجزوم به تأكيذا مؤسسا
على البرهان واليقين .

وذلك : أن كل علم جزئى فانه إنما يتحدث عن قسم محصور معين
بما هو موجود بالفعل ، وعلى ذلك فان موضوعه لا يعتبر كليا فى صفة
الوجود التى له ، أو فى كونه حقيقيا بل يعتبر معيناً مقيداً بشرط ما
آخر جزئى .

فالفلسفة الأولى أى العلم الذى يحاول أن يكتشف العالل والأسباب
القصورى لصفة الأشياء على العموم لا يمكن أن يكون عين أى
علم من العلوم الجزئية . ونفس هذا الاعتبار يشرح لنا ما معنى فلسفة
أولى ، وما هى الفلسفة الأولى ، تلك الفلسفة التى تفسر لنا مبادئ
العلوم المختلفة وتدافع عنها بجدل ضدّ هؤلاء الذين يناقضونها .

لانه ليس من خصائص المهندس ، ولا الطبيب ، ولا غيرهما من
الإخصائيين أن ينظروا فى اعتراضات على المبادئ الكلية للفكر

والتدليل مثل قانون التناقض . إنهم يسلمون عن رضى بهذه المبادئ .
فاذا ما هوجمت وحمل عليها فليس يمكن الدفاع عنها بالاعتبارات
الطبيعية أو الهندسية .

وأیضا ليس من الواجب فى مبادئ العلوم الجزئية أن تمتحنها
تلك العلوم وتدافع عنها . إنها لى الأصول الموضوعية والمبادئ
المفروضة للعلوم التى تستخدمها . وعلى ذلك فان هذه العلوم محقة
فى القضاء بأنها تسلمها على أنها شرط ما للبراهين الهندسية والطبيعية
والحيوية (أى الخاصة بعلم الحياة) ، فاذا ما أصبحت موضع شك
فان الدفاع عنها هو من وظيفة المنطق (أو الفلسفة الأولى) فقط .
من ذلك يتبين أن الفلسفة الأولى هى العلم بما هو آیس ، أى بما
هو موجود بالفعل فقط بما هو كذلك ، أى العلم بالمبادئ السككية
لهیئة وبنية بدونها لا يمكن أن يكون نظام متسق لمواضيع قابلة للعلم
لكن كلمة آیس ، أو وجود ، هى : ذات معانى جملة لا معنى واحد فقط .
فیوجد ثمة ضروب شتى من الوجود بقدر ما يوجد ضروب للحمل .
مثلا الجواهر مثل إناس وأفراس وأشباههما لها ضربها الخاص
من الوجود ، إنها لى أشياء ، والسككيات : مثل الخضرة والحلاوة
ذات قسط آخر من الوجود ، إنها ليست أشياء بل آثار وصفات
الأشياء ، والأفعال مثل البناء والقتل لها شأن آخر من الوجود ،
فهی ليست أشياء ولا آثار أشياء^(١) والضرب الخاص بها من

(١) تفرقة بين للفعل والكيف يذكرنا بتفرقة النحاة بين المعنى
المصدرى والمعنى الحاصل بالمصدر . الاول : سیال . والثانى : قار . المغرب

الوجود هو أنها عمليات تكون أو تفسد الأشياء .
والفلسفة الأولى تعنى بالصفة العامة لضروب وشئون الوجود
هذه . بيد أنها تعنى على الوجه الأخص بهذا الضرب من الوجود
الذى يخص الجواهر ، لأن هذا هو الضرب الأول لكل شئون
الوجود ، يجب علينا أن ندخل الايمان إليه فى محاولتنا أن نقول :
أى ضرب وشأن من الوجود تأخذ الأفعال والكيفيات ؟ وكذلك
يكون الأمر والخطب إذا أخذ بياننا من أى مقولة من المقولات
الأخرى ، من ثم كان المطلب الرئيسى والخاص بالفلسفة الأولى
هو أن يحلل مفهوم الجوهر ، وأن يبدى مبراعن علل وجود الجواهر
وبعد : فيجب علينا أن نلاحظ أن لفظ الجوهر نفسه يتناول
معنيين : فحينما نتكلم عن الجوهر بأنه أحد المقولات ، فاننا نستعمله
فى معنى ثانوى ، ولكننا قد نقصد من الجواهر ، أمثال الإنسان ،
والحصان ، وسائر الأنواع الحقيقية التى نجدها فى عالم الطبيعة
والكيان ، والى نجتهد أن نستحضرها فى تقسيم ما على . وفى هذا المعنى
لفظ جواهر يوجد نوع خاص بمحمولات كالذى تثبته أفلاطون
عند ما نقول إنه إنسان ، أو الذى نوجبه « أبوسيفائس » ، عند ما
نقول انه حصان لكن فى المعنى الأول يقصد من الجوهر شئ ما
شخصى مطلقا ، أى هذا الإنسان ، أو ذاك الحصان .
وعلى ذلك فاننا قد نجد الجواهر الأولى من نقطة مرتأى منطقى
بقولنا : إنها التى يمكن فيها فقط أن تكون موضوعات للحل ،
(م - ٥)

ولا يمكن أن تكون محمولات ، وأيضا من خصائص الجواهر انه حينما يبقى بالعدد جوهر واحد يكون عرضة لتعينات متناقضة وهو واحد بعينه . مثل سقراط فانه على الترتيب هو شاب وشيخ ، وهذا لا يصدق على الكيفيات والأفعال وسائر المقولات ، فان نفس هذا اللون الواحد بعينه لا يمكن فيه أن يكون أولا أبيض ، ثم يصير أسود ، ونفس هذا الفعل الواحد بعينه لا يمكن أن يكون أولا رديئا ، ثم يصير جيدا .

وعلى ذلك نقول : إن الجواهر الشخصية هي العوامل الثابتة والقارة في عالم التغير أى أنها ذات الوجود المعرض للتغيرات ، تستمر العمليات فيها انها تمر بسلم التغيرات من يوم الميلاد إلى ميقات الفساد ، عمليات تحدث فيما بينها ، تتبادل الفعل والانفعال ، إنها تتقلب في كفياتها وأقدارها . ولكن ما دام يوجد جوهر واحد فانه يبقى واحدا بالعدد ، ويستمر هو هذا الجوهر بعينه في عين هذه التغيرات كلها . إن وجودها هو الشرط الأولى والاساس الاصلى لوجود العالم حيث أنها حوامل الكيفيات ، وحدود كل النسب والفواعل والمنفعلات في كل تبادل فعلى .

والنقطة ذات البال هي : أن أرسطو يبتدىء بحثه في كيان ما هو أيس ، أى موجود بالفعل ، والعلل التى بها يحدث بالابتداء من وجود الأشياء الشخصية الخاصة بالترتيب الطبيعى والمحسوس بالحواس . وعن أى شيء مثل هذا قد نلتى إليك سؤالين .

أولا : إلى كم مقوم ذاتى وعامل أساسى يمكن أن يحلل منطقيا؟

وثانيا : كيف يتأتى له أن يبدى الصفة التى يبدى تحليلنا أنه يحوزها؟
أما الجواب على هذين المطلبين فسوف يظهر من النظر فى
تقابل أمرين متقابلين يلوحان فى كل فلسفة أرسطو ، وهو التقابل
الذى بين الهيولى والصورة ، أو الكائن بين ما بالقوة وما بالفعل ،
والمتبين من تلخيص تعليمه عن العلل الأربع أو المعانى الأربعة
للفظ العلة .

الهيولى والصورة :

إذا نظرنا فى أى شيء شخصى تام التكوين ، سواء أكان صنع
الإنسان مثل طاس من النحاس ، أو كان صنع يد الطبيعة كشجرة
من البلوط ، أو حصان فإننا فى الحال نرى أن الطاس كسائر الأدوات
النحاسية المصنوعة من ذلك المعدن مثل شمعدان ، أو آنية فخم له
مادته النحاسية المشتركة . ثم هو يتميز بشكل خاص يتميز به عنها
يعده لصلاحية استعمال خاصة .

وكذلك فانظر فى العالم النباتى أو الكيمياء ينبئك أن الأنسجة
المكونة للبلوط أو العناصر الكيميائية التى منها تتألف هذه الأنسجة
هى من جنس الرماد ، إلا أنه يختلف عنه فى التظم والتأليف الخاص ،
وعلى مثل هذا فقس المقارنة بين مثل الحصان ، والثور مثلا . فن
ذلك نرى أنه يمكننا فى أى شيء شخصى أن نميز بين مكونين
(مقومين) اثنين .

أولها : المادة التي منها يتكون هذا الشيء ، والتي تكون مساوية في الجنس للمادة التي منها تتكون أشياء أخرى مختلفة الأنواع بحد الاختلاف .

وثانيهما : القانون التآليفي للتكوين والتصوير ، أو الترتيب الذي يختص به ذلك الشيء الذي ننظر فيه ، وفي الشيء الشخصي الفعلي يتحد هذان الأصلان ويتصلان بلا تعدد ولا انفصال ، فليس مثلهما مثل الإيدروجين ، والأكسجين اللذين يقول عنهما الكيميائي : بأنهما يوجدان جنباً لجنب في نقطة الماء ويتجاوران ويتضامان .

إن قانون الترتيب والتنظيم ظاهر باد في النحاس وبواسطته كما هو كذلك لائح واضح في الأنسجة المختلفة الموجودة في جسم الحي . يعبر عن ذلك أرسطو بقوله : إنه ليتسنى لنا أن نميز بين وجهين في كل شخص وهما هيولاه وصورته ، فالشخص هو الهيولى من حيث هي مرتبة منظمة حسب مبدأ معين وهو الصورة ، ويضرب المثل الأول من هذين الوجهين وهو الهيولى باخشاب الفلك . مختاراً لهذا المثل كي يتبين أن المقصد من اللفظ هو عين ما نقصده من لفظ غفل أو ساذج (خام)

وقد يرجع هذا التمثيل إلى ذكرى تخيل « فيثاغوري » عتيق نظر إلى العالم على أنه فلك .

وأما كلمة صورة فهي مثل الكلمة التي لأفلاطون وإن استعمالها الفلسفية ذات اتصال تام بمعناها التعليمية (الشكل المنتظم) وهو أيضاً اصطلاح « فيثاغوري » لم يزل باقياً ، في عبارات

ثابتة لم يعتورها التغير ، باقليدس .
ولقد وسع أرسطو (بذريعة القياس والتشبيه) ذلك التحليل
إلى الهيولى والصورة ، وتجاوز به وراء تخوم الجواهر الشخصية
إلى أن تناول كل شيء يتسنى لنا فيه أن نميز بين شيء غير معين نسبيا
وبين قانون ، أو نحو من الترتيب والتنظيم يفيدہ تعينا .
مثلا : إذا نظرت إلى الخلق المكون أو الثابت نسبيا لإنسان بلغ
سن الرشد ، فإنه يمكنك أن تنظر إلى هذا الخلق على أنه ناتج من المادة
الخاصة بميول وطبائع أخذت تطورا خاصا في سمات خطوط محدودة
حسب نوع التربية التى تعرض لها العقل فى الدور التكوينية لنموه .
وعلى ذلك يمكننا أن نقول عن الطبيعة الأصلية بأنها الهيولى
أو المادة الغفل التى منها يتكون الخلق ، وإن المطلب العملى للتربية
هو أن نتدبر لنكتشف نظاما خاصا بالتربية يطبع على هذه الهيولى
بالدقة الصورة المطلوبة إذا أريد بالإنسان البالغ النمو أن يكون
رجلا خيرا فاضلا لمدينة (دولة) فاضلة ، وبما أن خلق الإنسان نفسه
ليس هو جوهر ما ، بل أمرا مركبا من ملكات أو طرائق ثابتة لفعل
ناجم عن إيعازات ودوافع آتية من العالم الذى يحيط به ، فهو مثال
جيد لتوسيع التحليل إلى الهيولى والصورة وراء مقولة الجوهر .
إذن يتسنى لنا أن نرى أن الهيولى بالمعنى الأرسطى يجب أن
تكون أعم وأوسع من ذلك الأمر الذى يختص بالجسم ، فالعامل
(أى الجزئى) اللامتعين نسبيا والذى يقبل تعينا أتم وأكمل على يد
قانون بنائى تاليفى ، أو على يد صورة هو الهيولى سواء أكان جسمانيا

أو لم يكن . ويصبح هذا أشد جلاء ووضوحا على الوجه الأخص
في الشرح الما بعد الطبيعي للعملية المنطقية الخاصة بالحد المتكون من
الجنس والفصل . حينما نحدد نوعا حقيقيا نذكر أولا النوع الأعلى
الأوسع الذي ذلك النوع الحقيقى نوع فرعى منه ، ثم نضيف
المميزات الخاصة به التى تميزه عن الأنواع الأخرى الفرعية التابعة
لذلك الجنس عينه ، فيكون إذن موقف الجنس إزاء الفصل كموقف
الحيولى إزاء الصورة التى تعيرها بناءها .

وينبغى أن نلاحظ أيضا أن الحيولى والصورة بالدقة أمران
متضايقان .

فالحيولى : سميت هكذا بالنسبة إلى الصورة التى تعطىها تعيينا ما
آخر ، اذا استعملت اللفظتان بمعناهما الدقيق فيما يختص بشيء ما
شخصى ، فالصورة يقصد منها التعيين الأقصى الذى يستحوذ الشيء
على صفته التامة ، والحيولى يراد منها ذلك الأمر الذى لم يزل فى انتظار
لأن يقبل هذا التعيين الأخير . مثلا : نلتنظر إلى أكرة من النحاس
ترى أن الشكل الكرى هو الذى يقال عنه بأنه صورتها ، والنحاس
هو هيولاء ، وانظر فى أمر الجسم الإنسانى تجسد أن الحيولى هى
الأنسجة المختلفة والمعضلات والعظام والجلد وما إلى ذلك ، لكن كل
شئ من هذه الأشياء التى عدت بأنها مختصة بهيولى الأكرة ،
أو بهيولى الجسم الإنسانى له عند أرسطو تطور ماوراءها ، فالنحاس
ليس هو اسطقسا محضا بل هو مؤلف من اسطقسات ويصدق مثل
هذا صدقا أكثر على أنسجة الجسم الخى المحكمة الصنع بأجود

حكاه ، وعلى ذلك فان ما يدعى هيولى بالقياس إلى الاكرة أو الجسم الحى هو هيولى عيبتها من قبل الصورة ، إذا نظرنا إليها بالنسبة إلى مكوناتها .

وما يسمى باسطقسات انبذقلس أعنى الماء والتراب والهواء والنار هي هيولى المركبات الكيميائية طرا ، وصورة كل مركب مركب هو قانونه النوعى المختص بتركيبه .

والهيولى المباشرة أو القرية لأنسجة جسم الحيوان هي طبق علم الحياة الارسطى ، دم الأم الفاضل عن حاجتها والذي تتكون منه الأنسجة المختلفة فى المولود ، وهيولى هذا الدم هي فى دورها تلك الجواهر المختلفة التى تجلب وتؤخذ إلى جسم الأم وتوجد فيه كطعام ، ثم تستحيل إلى دم بعملية التشبيه . وهيولى هذه الجواهر (الغذية) هي : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، التى منها تألفت وتكونت . وعلى ذلك فى كل مرتبة من مراتب الصنع أو النمو صورة ما جديدة تضاف أو تتطور فى هيولية ما ، وهذه هي نفسها مؤلف ما من هيولى وصورة بالنسبة إلى الاجرائية التى بها نفسها ابتدأت .

مثل هذا النظر إذا استقصى تمام الاستقصاء يقود إلى أن الأشياء فى النهاية تنحل إلى هيولى بسيطة قصوى بليعها هيولى واحدة عامة لجميع أنحاء العالم وعارية جرداء بالمرّة عن كل هيئة وصورة ، فكل صورة وهيئة معينة لاى نوع يجب أن تكون آتية من مصدر

خارجي طبقا للتفكير الصحيح الصادق^(١) حيث ان الهيولى هي عديدة
الهيئة والبناء ، فلا يمكن أن تعتبر معطية لنفسها أنواع التهيئات الخاصة
النوعية على ما برهن عليه في زماننا تهافت الفلسفة التأليفية ، ويتحاشى
أرسطو عن الصعوبة بارتقاء أن الهيولى المحضنة هي نتيجة تحليل
فكرنا . وفي الواقع ان الصورة الفجة التى فيها تلغى الهيولى هي
صورة الاسطقات ، وحيث أن تحول الاسطقات وانقلابها
بعضها إلى بعض (ذلك الانقلاب المسمى كونا وفساداً) هو عقيدة
في طبيعيات أرسطو لا مناص عنها ، فلا يتسنى لنا أن نتجافى عن
اعتبار التراب ، والماء ، والنار ، والهواء أنها أنفسها تعينات بصورة
نوعية خاصة لهيولى لم تزل أبسط ، وإن كانت هذه الهيولى المعروفة
بالهيولى الاولى لا تلغى أبداً موجودة في بساطتها .

القوة والفعل :

إلى هذه اللحظة كنا ننظر في تحليل الشئ الشخصى تحليلاً سكونياً
(أى من حيث هو في حالة سكون واستقرار) ، ولقد وصلنا إلى
ذاك التقابل الذى بين الهيولى والصورة بالتباين الذى بين حالة شئ
عديدة الكمال والتمام ، وحالته التامة السكاملة ، من بعد ذلك سوف

(١) هذا طبق ما يقوله علماء الكلام : من ان العالم ليس له من ذاته
الوجود لانه مجرد امكان محض . ووافق ما يقوله الفيلسوف كنت الألماني
من احتياج الإثبات إلى إلميات تأنيها لا من ذاتها بل من القوة الناقدة . العرب .

ندرس نفس هذا التباين من وجهة الحركة والسيولة ، بايماض خاص إلى إجرائية الصنع أو النمو التي بها يصير اللامتعين نسبيا أو اللامتكمل معيناً ومكملاً تاماً ، إذن يصير التباين الذي بين الهيولى والصورة إلى تباين بين القوة والفعل ؛ وما يقصد من هذا التقابل يتسنى لنا أن نراه جيداً في حالة نماء العضوية الحية . أنظر إلى أجنة حيوانين ، أو إلى حبوب نباتتين .

إن العالم النباتي والفيزيولوجي قد لا يكون قديراً على العلم عن يقين بالأنواع التي تتبعها النطف والجراثيم المعروضة عليه ، وكذلك التحليل الكيميائي قد يعجز عن التيقن منها واكتناه كنهها وأيضاً يعسر التمييز في مرتبة متأخرة من التطور بين جنين حيوان فقري ، و جنين حيوان آخر . إلا أننا على يقين من أن إحدى هاتين الحببتين المتعسرتي التميز في البدء ستنمو إلى شجرة بلوط ، والآخرى إلى شجرة الدردار ، وأن أحد هذين الجنينين ينمو إلى الشمبانزي ، والآخر إلى الإنسان . فكيفما كان الحال والشان في أمر النطف والجراثيم ، ومهما كان من التعسر والتعذر فلا يمنع ذلك من الاعتقاد والقول عنها بأنها ذوات ميول كامنة أو إمكانات تطور متوقع فيها لا محالة . من ثم قد نقول عن جرثومة معطاة إنها بالقوة بلوطة ، وإن لم تكن كذلك بالفعل بعد . ومعناه ذلك ليس أنها فقط إذا تركت وشأنها تصير يوماً ما بلوطة ، بل وإنها بلا تدخل لا يمكن أن تنمو إلى شجرة دردار أو شجرة زان .

وعلى ذلك يمكننا أن ننظر في كل إجرائيات الایجاد أو التطور

بأنها إجراءات فيها يصير ما تحوزه في البدء من الميل إلى النمو في سمات خطوط معينة ، أو إلى الصنع في صور مخصوصة ممهرا فعلا بالصفة التي إليها الميل . فبذرة البلوط أو جوزة البلوط تصير على عمر الزمن وتعاقب الملوين ، وتتابع الجديدين شجرة بلوط بالفعل ، والطفل يصير إنسانا بالفعل ، والنحاس آنية بالفعل .

والترية الحققة تخرج الاستعدادات الخاصة الكامنة في الطالب إلى درجة وحسنة بالفعل ، من ثم قد يعبر أيضا عن التباين الذي بين الهيولى والصورة بقولنا : إن الهيولى هي المحل الدائر الباقي أو المركز الرئيسى الثابت الذى فيه يحدث تطور الصورة ، أو ان الشخص حينما يعين نهائيا بالصورة يكون هو الفعلية التي كانت الهيولى هي إياها بالقوة قبل التطور .

إجرائية الحمل ، والولادة والنمو إلى البلوغ والكمال في الطبيعة أو إيجاد صناع لصنف ما مكمل ، صناع وظيفتهم محاكاة الطبيعة قد يقال عنها (أى عن هذه الإجراءات) بأنها تقدم متواصل نحو الإخراج بالفعل للصورة ، أو قانون التنظيم في هيولى حائزة للقوة الكامنة المائلة إلى التطور في سمات تلك الخطوط الخاصة . عند ما يتكلم أرسطو متحريرا الضبط والتدقيق فإنه يميز بين الإجراءات التي بها الصورة تتحقق تلك التي يدعوها قوة (أى قوة فاعلة) وبين مظهر الصورة المتحققة ذلك الذى يسميه الكمال (١) ،

(١) بلوح من الكلام ان المؤلف يريد ان يبدى استغرابه في معينين متباينين مستشكلا ذلك ولكن لا وجه لاستشكاله هذا حيث أن =

وعلى كل حال يستعمل غالبا لفظة قوة بتسامح وتجاوز في التعبير عن المظهر الفعلي للصورة نفسها وفي هذا يتبعه علماء الكلام الذين يردون القوة إلى الفعل المحض .

بقي علينا شيء واحد من مقتضيات هذه الاجرائية يجب علينا أن نلاحظه وهو : في أنها ليست عملية ذات استعدادات وقابليات غير محققة مجردة عن كل غاية ، بل هي على الدوام ذات غاية في المعنى البسيط لآخر مرتبة ، فحوزة البلوط تنمو إلى شجيرة ، والشجيرة إلى شجرة بلوط ، لكن الشجيرة لا تنسب إلى البلوط ، كما أن البلوط لا ينسب إلى الشجيرة . البلوط لا ينمو إلى شيء ما آخر . فعملية الخروج من القوة إلى الفعل في هذه الحالة الخاصة تقف عند نهاية بروز البلوط الكاملة البالغة

في العالم العضوي تستعرف الغاية أو الحالة النهائية من هذه الحقيقة . وهي : ان العضوية لها قوة الابداع الخلف لها شبيه بها ، وميل العملية العضوية هذا لأن تبلغ درجة النهاية في مرتبة قصوى لبوغ تام هو مفتاح النظر في مطلب الغاية الصادقة للحياة من كتاب الأخلاق لأرسطو .

الحلل الأربع :

إن التصور عن العالم المنطوي في التقابل الذي بين الهيولى والصورة ، وما بالقوة وما بالفعل يجد أنتم عبارة له في تعليم أرسطو

== اللغات ملؤها الالفاظ المشتركة خصوصا وان أكثر الالفاظ اعتورها هذا الاشتراك . العرب .

عن العال الرابع ، أو شرائط إيجاد الأشياء ، وينظر أرسطو إلى هذا التعليم بأنه الحل الأخير للمطلب الذى ما فتىء هو المطلب الرئيسى للفلسفة الإغريقية وهو هذا : (ما هى علل التنظيم العالمى ؟) وإنه ليعتبر كل الفاسفات الأولى محاولات غير كافية ومعالجات ناقصة لصوغ الجواب عن هذا المطلب الذى لا يعرف بحقيقته وتمايمته إلا فى مذهبه . من ثم تستدعى التعليم الإبانة عنه بإيضاح وإسهاب وإفصاح وإطناب .

وقد يقترب إليه بالابتداء من المعنى اللفظى لكلمتى اللم واللمى اللتين يستعملهما أرسطو ليؤديا مفهوم العلية .

فاللمى هو حقيقة صفة مستعملة كاسم ويقصد منها ذلك الأمر الذى تتوقف عليه توقفا شرعيا المسئولية الشرعية لحالة حوادث معطاة . وكذلك اللم أى الاسم يقصد منه سند الخير والشر أو المسئولية الشرعية لفعل ما ، فحينما نسأل من المسئول عن وجود كذا ، وكذا ، من حالات أشياء ؟ أى ما هو السبب فيه ؟ يوجد ثمة أربعة أجوبة جزئية قد تعطى ، وكل واحد منها بإزاء أحد العلل . وأما الجواب التام فانه يقتضى سردها جميعا فلذا أن نذكر

أولا : العلة المسادية للشيء ؛

وثانيا : الناموس والقانون الذى على وفاقه نما الشيء أو تطور ، أعنى العلة الصورية ،

وثالثا : الفاعل الذى بسبب دفعه الابتدائى يبتدأ التطور

(نقطة بدء العملية) أو العلة الفاعلية على ما دعاها المتأخرون من
الأرسطيين

ورابعا : النتيجة المتمة للعملية كلها التي هي حاضرة في أمر
الصناعة البشرية على أنها فكرة ما سبق أن تصورت فكرة
معينة لكل منهج الصانع في تدبير مادته والتصرف بها وحاضرة
في أمر التطور العضوي في الطبيعة على أنها سارية في مراتب النمو
المتعاقبة ومحددة لها . أعني العلة الغائية . وإذا اختلفت إحدى هذه
العلل فالحالة الحاصلة الأشياء كذلك تختلف .

من ثم يجب أن تخصص كل الأربعة بتمتها في التعليل عنها ،
يمكن أن تعطى لإيضاحات بيينة من الانتاج الصناعي الذي تبديه
الصناعة البشرية . لكن يلوح جليا أن السبب الأصلي في التعليل
والتميين هو بالحرى ذلك التبصر والتأمل الذي في العملية الحيوية
للتناسل والنمو .

لنفرض أننا نسال ماذا يلزم ليكون الآن هناك شجرة بلوط
في بقعة ما . فبين جلي أنه يجب أن يكون هناك أولا بذرة منها تنمو
البلوط ، وأنه يجب أن يكون في هذه البذرة الميول السكامة نحو
التطور تلك الميول التي يتميز بها البلوط ، فهذا هو العلة المادية للبلوطة
ويجب ثانيا أن تتبع هذه البذرة قانونا للنمو مقرر ، وأن يكون
فيها الميل نحو النمو في الطريق الممتاز للبلوط ، ونحو تطور بنية
البلوط ، لا نحو بنية بسيط ما أو رماد ما ، فهذا هو الصورة أو
العلة الصورية .

ويجب ثالثا حيث أن هذه البذرة لا تأتي من لا مكان بالطبع أنها نمت عن أم بلوطية ، فهذه الأم وفاعليتها الحمل الجوزة أو البذرة هي على ذلك تكون العلة الفاعلة للبلوطة الحاضرة ، ويجب رابعا أن يكون هناك مرتبة نهائية غائية ينسب إليها كل عملية النمو وفيها لم تعد البذرة أو الشجيرة كائنة بعد بل هي بالفعل الآن بلوطة بالغة حاملة لجوزات جديدة . هذا هو غاية العملية . إن الإنسان لا يكون مخطئا إن أقدم على القول بأن فسكرة أرسطو الحيوية (أى فسكرته عن علم الحياة) قادته لأن يتصور هذه الغاية في حالة التناسل على أنها غرض ما غير متحرى بخلاف حالة الصناعة التى فيها تكون فسكرة الصانع عن النتيجة التى يجب أن يحصل عليها بعمله هي الغرض المحرك المتوخى وفى كلا الطبيعة والصناعة تميل الصورة (أو العلة الفاعلة) والغاية إلى أن يتحددا مكونين شيئا واحدا ، مثلا : فى الطبيعة تجدد الإنسان يلد إنسانا . والكائنات العضوية تلد كائنات عضوية أخرى من نوعها .

وباللغة الاصطلاحية عن نظرية أرسطو للعلية تنتج العلة الفاعلة كفاية لفعلها كائنا آخر محرزا لمثل صورتها ، وإن كانت هذه الصورة إنما تتحقق فى مادة أخرى مغايرة بالعدد لمادة أصلها ، وعلى ذلك فإن العلة الفاعلية (أعنى الأم أو الوالدين) هي صورة ما متحققة فى مادة ، والغاية هي نفس الصورة متحققة فى مادة أخرى . وكذلك فى منتجات الصناعة يكون المصدر الصادق للعملية هو الصورة التى تحققها يكون الغاية أو العلة الغائية ، "و فقط يختلف عنها فى هذا وهو أن

الصورة من حيث هي علة فاعلة لا توجد في مادة بل توجد على منهاج فكرة وبصفة معنى ، أو تمثل في عقل الصانع فلا يقال في الصناعة إن المنزل ينتج منزلا آخر ، لكن بما أن المنزل يوجد في فكرة ومعنى يتمثل في عقل البناء فهذا ينتج منزلا آخر مماثلا لما تمثل أولا بفكرة ومعنى . بيد أنه متحقق في اللبن والحجر . وعلى ذلك فإن التقابل الأقصى هو الكائن بين العلة من حيث هي مادة وهي المحل المعطل الخاوي والمنفعل للتغير والتطور وبين العلة الصورية التي (في المعنى الذي شرحناه الآن) هي واحدة مع كلا الفاعل أو نقطة البدء والغاية أو مرمى التطور .

بالطبع يرى أن الأشخاص (الفواعل) الحاملة للصور هي أشياء لا مناص عنها في النظرية من ثم تكون فكرة الفاعلية هي أساسية للعلاقة العلمية أنها هي علاقة بين الأشياء لا بين الحوادث ، وليس عند أرسطو معنى لكلمة علة يشاكل تصور ، متبوارت ميل ، للعلة من حيث هي حادث ما هو بشير مطرد بحادث آخر .
وهنا قد يشار إلى ملاحظتين في هذا الصدد :

الأولى أن أهمية مفهوم الغاية تعطى فلسفة أرسطو صبغة فلسفة العلة الغائية (التي هي من جهة أخرى الروح السارية في عموم مذهبه ، والتي تشام من جميع أنحاء تعليمه إنه ينبئنا بأن الطبيعة والله لا يفعلان شيئا عاطلا عن الغاية ^(١) .

(١) في الاصطلاح القديم ان الطبيعة لا تفعل عبثا ، والله لا يفعل إلا بحكمة . المعرب .

لكن قد نكون غالطين إذا فهمنا من ذلك أن الله والطبيعة
يفعلان في كل مكان لغرض متحرى ، والمعنى هو بالحرى أن كل
عملية طبيعية ذات مرتبة أخيرة ففيها الصورة (التى كانت حاضرة
بادئ بدء فى الفاعل أو مصدر التغير محقق بتنمته فى المادة التى فيها
أنشأ الفاعل عملية التغير . والشئ العادى الطبيعى هو أن الحيوانات
تخلق نوعها (لذا لم يكن لها من غرض غير نفسها) وإذا كان النسل
أو الخلف ناقصا أو منحرفا كما فى المواليد التى هى فلتات الطبيعة يكون
هذا استثناء راجعا إلى وجود اتفاق عرضى فى المادة وجود لتقائص
عاشت عن أخذ سير التطور مجراه ، ويجب أن يعتبر ضدا لمجرى
الطبيعة العادى . ومن ذلك كان تولد النفل (وهو مختلط النبت)
أمرا استثنائيا وضدا للطبيعة . وهذا ما يبدو فى عقم النفلات وهو
نوع أقل فلتا وأكثر شذوذا حتى أن الأناث لكونها تطورات
منبثة هى نوع من انحراف عن المبدأ لم يزل أقل .

الملاحظة الثانية : أنه قد يذكر ههنا أن لأرسطو تقسيما للعلل
الفاعلة تحت هذه العناوين الثلاثة وهى : الطبيعة ، والإرادة ، والصدنة .
والفرق بين الطبيعة والإرادة من حيث هما من العلل الفاعلة قد سبق
تبيانها فى الفعل الطبيعى الذى للعللة الطبيعية مثل التناسل الجنسى
أو عملية التغذية والهضم أو الكون والفساد الذى يعتقد به أرسطو
وهو انقلاب اسطقس إلى آخر توجد من قبل الصورة التى يمنحها
الفاعل للمادة فى الفاعل نفسه على أنها صورته ، فالبلوطة تصدر
من أم بلوطية ، والغذاء المتحول إلى نسيج عضوى راجع إلى

فاعلية نسيج عضوى كائن من قبل . أما فى الإرادة (وعمل العقل البشرى أو الصناعة) فيجب فى الصورة التى يجب أن تحل المادة الصناعية أن توجد فى الفاعل لاعلى أنها صورته المقومة له ، بل على أنها تمثل بصفة مقصد تفكر فيه وهذا أمر بديهي ، فالإنسان الذى يبنى منزلا ليس هو نفسه منزلا ، والصورة المنزلية المقومة للمنزل مباينة حق المباينة للصورة الإنسانية المقومة للإنسان لكنها أى تلك الصورة المنزلية تمثلت فى التفكير بالبناء من قبل ما تبرز فى مادة المنزل الخارجية بالفعل .

قد تضاف كلمة بيانية عن النوع الثالث للعلة الفاعلة أى العلة بالصدفة . وذلك أن هذا النوع يقع فى الحالات التى هى استثنائيات شاردة عن المجرى العام للطبيعة ، اعنى الاتفاقيات الغريبة . إنها هى التى قد تدعى بالقصدية الكاذبة فحينما يحدث فى الأمور البشرية شئ ما فى طريقة تساعد على تنجيز نتيجة ما لكنه لم يجلب من حيث هو كافل بالنتيجة فأننا ندعوه اتفاقا غريبا . مثال ذلك : إن انسانا قد يتفق له أن يسير فى طريق غير مأمون ، وبينما هو سائر إذا قطاع الطريق وقد اتلاقوا به وألزموه بأن يفتدى نفسه أماءهم ، ثم لا يلبث أن يظهر ليفى من أعز أصدقائه بغتة دون سابقة علم منهم بهذا الأمر ، ويقومون له بوسائل الفداء ، وقد يتفق أن ترتب أمور لتكون أسبابا فى حوادث ما ولا تقع فى الوقت المناسب ، ثم انها من بعد ذلك

قد تقع في مثل ذلك الوقت دون ترتيب ولا تدير سابق ، بل يكون ذلك صدفة .

إن القول عن الصدفة كان ذا أهمية في علم الأخلاق بالقرون الوسطى ، ففي العصور التي تقدمت الخرافة البروتستانتية القائلة بأن النجاح العالمي هو برهان على القرب من الله لكونه دليل العناية الإلهية - علل العوز إلى تشابه بين احتياجات الناس وسعادتهم بهذه الفكرة ، وهي : أن توزيع الخيرات العالمية هو غالبا فعل البخت أو الصدفة بالمعنى الأرسطي . أعنى أنها راجعة إلى اتفاقات خاصة تشبه قصدا متحرى لكنها في الحقيقة على خلاف ذلك .

الحركة :

لقد رأينا أن العلية سواء الطبيعية والصناعية تقتضى الإنتاج في مادة ما لصورة ما تحت تأثير فاعل ما ماهى ماهية الاجرائية التي شادها الفاعل في المادة والتي بلغت ذروتها في الصورة ؟ يجيب أرسطو عن هذا بأنها الحركة .

فتأثير الفاعل في المادة هو أن ينشئ فيها حركة تنتهى بلبسها صورة ما مقررة . والنقطة الخطيرة ذات البال التي يجب أن تلاحظ ههنا هي أن أرسطو يعتبر هذه الحركة واقعة جملة في المادة التي يلزمها حتما أن تلبس الصورة وليس من الأمر الضروري أن يكون الفاعل نفسه ذا حركة في نفسه ، بل اللازم فقط هو أن يسبب حركة في

شيء آخر. مثلا : في كل أحوال الفعل الإرادى تكون العلة الفاعلة التصوى هي الفكرة عن النتيجة التى يرغب الحصول عليها ، وبالطبع هذه الفكرة لا تتحرك . بيد أنه بوجودها فى العقل تجعل شيئا آخر وهو أعضاء الجسم فى حركة . وهذا الضرب من التصور عن العلة الفاعلة التى لا تتحرك بنفسها والتى بمجرد وجودها تسبب حركة فى طريق ما لأجله توجد ، هو ذو خطورة عظمى فى الحكمة الإلهية الأرسطية . وحيث أن الحركة التى هى الخروج من القوة إلى الفعل أو التى بها ينتج هذا الخروج تقع جملة فى داخل المادة التى هى الحقيقة الانفعالية والطبيعة المنفعلة فيلزم أن أرسطو لا يشغل نفسه بأى مطلب عن الطريقة التى فيها يمكن أن تنتقل الحركة من جسم إلى آخر ذلك المطلب الذى أثير كثيرا فى الأيام الأولى للتفسير الميكانيكى (تفسير الحركة القسرية) الحديث عن الاجرائيات الطبيعية وطريقته تصور أرسطو عن الطبيعة نخلو من كل تصور ميكانيكى (قسرى) وتقرب مما سمي الآن بعزومات حيوية أو شبه حيوية إلى اللاعضوى .

كما أن فى عالية الصناعة يسبب مجرد وجود الصورة فى عقل الصانع تلك الصورة المزمعة التذود (التجسم) فى مادة ما ، ويحلب ويوجه عملية الصناعة كذلك فى طريقة مشابهة لهذه يذكر عن وجود لعل ما فاعله فى الطبيعة لذلك الذى فيه تعمل . وعليه تؤثر بأنه نفسه المكون لما عالية العلة وكما صاغ النظرية لوتز (الفيلسوف الألمان) إن

الاشياء يلحظ وجود بعضها البعض في العالم ، أو نقول ان العلة الفاعلة والذي فيه تدرب فاعليتها هما على وفاق وفي اتصال ونسبة مباشرة . فالمادة هي حساسة بوجود العلة الفاعلة وإجابة على هذه الحساسية تبرز تعينات متعاقبة وتوسع ميولها الكامنة في خطوط مقررة .

وليعلم أن لفظ حركة ذات معنى أوسع عند أرسطو مما لها عندنا أنه يحصر تحت لفظ واحد مشترك كل الاجرائيات التي بها تصير الاشياء على ماهي عليه أو تمسك عما كانت عليه لنا بنوع الحركة إلى أنواعها التالية .

(١) الحركة في الجوهر التي يسميها الكون والفساد : وهي خروج^(١) الشيء من العدم إلى الوجود وبالعكس مسميا العدم فسادا والوجود كونا .

(٢) الاستحالة : وهي الحركة في الكيف مثل التبييض والتسود والتعلم وما إلى ذلك .

(٣) وثالثا الحركة في الكم : مثل النمو والذبول والتخلخل والتكاثف وما ينحو هذا النحو .

(٤) ورابعا الحركة في المكان المسماة بالنقلة : وهذه تنقسم إلى

(١) اعلم أن تسمية الكون والفساد حركة مجاز عند القدماء لأن الحركة عندهم تنقل تدريجي ، أما الكون والفساد فهما انتقال دفعي ، وذلك مثل تسمية الحدس فكريا وبين القدماء خلاف حول الحركة الجوهرية ومن القائلين بها الاشرافيون وطائفة الصدرية . المأرب .

المستقيمة العنصرية كهبوط الثقيل وصعود الخفيف ، والمستديرة
الفلسكية وهى التى تكون فى مدار مستدير حول محور أو قطب .

وهذا النوع الرابع وهو الحركة فى المكان هو أهمها كلها حيث
أن حدوثه يقع فى كل نحو من أنحاء الحركة المذكورة ، وإن كان
أرسطو لا يتبع النظر الميكانيكى (القسرى) البحت من أن الاجرائيات
والحركات الأخرى هى ظاهرة فقط ، وإن الحركة فى الكيف على
ما يجب أن نقول إن هى إلا لباس تنكر تلبسه الحركة الميكانيكية لحواسنا

أولية الحركة :

إن العلة الفاعلية التى سلف لنا لإيضاحها وشرحها ليلزم عن
تصورها جملة من النتائج غاية فى الخطورة ، فأرسطو لا يوافق على
انظار القائل بالنشوء التى قبلها لفيف من سلفه ، فحسب نظره عن
التكوين العضوى (الذى يقتضى أن الإنسان يلد إنسانا وحيث
يوجد طفل يجب أن يكون هناك إنسان والد له) يجب فى الأنواع
البيولوجية الممثلة لشغرات حقيقية فى الطبيعة وعملية تكون جيل قى
من جيل بالغ قد وجد من قبل - أن يفكر عنها بأنها موجودة
أزلا بلا ابتداء ولا انتهاء ، ولا يمكن أن يكون هناك نشوء طبيعى
لحيوانات نوع واحد من أشخاص نوع آخر مخالف له .

وكذلك لا يدور ببال أرسطو إمكان القول بالحدوث (الحدوث
الدفعى الذى يشبه الطفرة) اعنى البروز بغته لجيل أول تام الارتياش
دفعه واحدة هذا الإمكان الذى يمانعه فى القول بأن مادة الشيء

يجب أن توجد من قبل على أنها شرط في إنتاج ذلك الشيء شرط
لامندوحة ولا مناص عنه . كل طفل كما قلنا يجب أن يكون مسبوqa
بوالد ، وهذا الوالد قد كان طفلا قبل أن يصل في نموه إلى مرتبة
البوغ الإنساني . لا غرو تكون الأنواع ثابتة البتة ، موجودة على
الدوام أزلا وأبدا دون أن يعثورها زوال أو يعثرها فناء وبوار .
ومقتضى ذلك أن كل الاجرائيات المختلفة (داخل العضوية
وخارجها والتي بنأى عنها أى عن تلك الاجرائيات لا يمكن لحياة
العضوية أن تثبت وتدوم) يجب أن تكون بالمثل بلا بداية ولا
نهاية ، والسكون أو العالم المرتب ذو العمليات الطبيعية هو بكل بت
وجزم ويقين حاسم حتم أزلى والحركة باقية أبدية متصلة دون
انقطاع ولا نفاد ولا انفصام ولا فساد .

ولقد اعتنق هذه النظرية الكثيرون من العلماء والحكام
والمشاؤون حتى اللاهوتيون المسيحيون أنفسهم الذين اقتفوا آثار
أرسطو فانهم لم يمكنهم أن ينفصلوا عنه في هذه النظرية . والقديس
توما وإن اضطر إلى التسليم بأن العالم مبدع ومخلوق منذ آلاف
من السنين هي قلائل بالقياس إلى ما مضى من الأزمان والمدد التي
تقدمت زمنه ، إلا أنه يعتقد بأن صدق ذلك إنما يمكن أن يعلم فقط
من طريق الوحي وكتب التنزيل ، وأما فلسفيا فإن الدافع إنما هو
حول أن العالم يجب أن يكون موجودا منذ الازل . إنه لا اعتقاد
عام شائع رائج السوق بين علماء الكلام . إن لفظة خلق أو إبداع
إنما تدل فقط على توقف العالم مطلقا في وجوده على الله .

فحينما نقول إن الله خلق العالم من لا شيء لا نقصد من ذلك إلا أنه صنعه لا من مادة موجودة من قبل ، وأنه يتوقف في وجوده عليه فقط ، فالعبارة هي قضية سالبة فقط في مضمونها ومعناها .

الله :

بالقول عن أزلية العالم والاجرائيات التي تنجز حياته نكون قد اقتربنا من النظرية البالغة الأوج في الفلسفة الأولى الأرسطية ، وهي : تعليمها عن الله من حيث هو علة لكل متغير غير متغيرة بل أزلية أبدية، وعلة لحركة وإجرائية أزليتين .

كل حركة هي إجرائية داخل هيولى بها تبرز الصورة السكائمة فيها من الكمون إلى باحة الظهور الفعلي ، وأن الاجرائية تقع فقط في وجود علة فاعلة واحدة أو مبدأ ومصدر حركة . من ثم تقتضى أزلية الاجرائيات ، الاجرائيات الطبيعية وجود مبدأ أو مبادئ أزلية للحركة ، لآنا إذا لم نسلم بوجود مبدأ أو مبادئ للحركة موجودة أبداً وغير حادثة (مبتدأة) لزمنا أن نعتقد بأن العلة العالمية راجعة إلى سلسلة مصادر للحركة توجد على التعاقب ، لا إلى أول ذلك الأمر المقتضى للتسلسل . لكن مثل هذا النظر يترك الوحدة والاتصال المتصل الذي للعملية العالمية غير معللة فانه إنما يعطينا تعاقبا لعمليات متصلة وقتيا لا عملية واحدة غير منقطعة ولا منصرمة .

لا جرم نستدل من اتصال الحركة بتوقفه على مبدأ أو مبادئ ثابتة موجودة في كل أنحاء العملية العالمية وباقية أبدا سرمدًا على وجود مبدئية بهذه الصفة والصبغة .

وحينما نأتى إلى مطلب ما إذا كان هناك مبدأ حركة أقصى لكل العالم أو جملة مبادئ فيكون جواب أرسطو هو أن المحرك اللامتحرك واحد فبدأ واحد هو كاف للغرض ، وقاعدة أن لا فضل في الطبيعة تمنعنا من افتراض كثرة . هذا هو التصوير الأرسطى عن الله والعلاقة الإلهية بالعالم . فالله هو الموجود الواحد اللامتحرك الذى لوجوده يجيب العالم عن كل العملية الخاصة بالتطور الكونى (أى بسبب وجود المبدأ الأول يخضع العالم لهذه العملية ويدعن لتأثيرها) وهو : أى ذلك الموجود الواحد المخرج الأقصى لسلسلة الصور السكائمة فى هيولى العالم إلى الظهور الفعلى ولسكونه واقفا كما هو الحال والواقع (على قمة الإشراف والهيمنة) خارج كل العملية التى بمجرد وجوده يبتدئها فى الطبيعة (ويقوم فى مقام الرئاسة والقداسة) فليس هو نفسه مؤلفا من هيولى وصورة كالحال فى نتائج التطور ، إنه هو محض صورة شخصية ، أو فعل بلا تاريخ لتطور تدريجى وراه (بلامادة) . وعلى ذلك فهو موجود مفارق محض لا بد منه لوجود العالم لسكنه يتنزه عنه ويقف خارجه .

يجهتد أرسطو أن يشرح كيف يوحى (يوعز) وجوده إلى العالم أن يتحرك بمسألة الشوق على سبيل المجاز . إذ يقول : كما أننى

أتصور الخير وأتشوقه ، وبدون أن يكون هو نفسه متحركاً يحرك
اشتهائي وشوقي وشغفي وتوقى ، كذاكم الله يحرك العالم لسكونه
خير (مطلوبه ومعشوقه) وهذا يسبب حركة مستديرة مطردة
غير منصرمة حول محوره (تلك الحركة التي هي تعاقب الجديدين
وتوالي الملوين) وحيث أن هذه الحركة المستديرة تسرى من الفلك
الأقصى إلى الأفلاك الصغرى التي بينه وبين المركز الثابت
اللامتحرك ، فإن تأثير وجود الله إذن هو أمر محسوس ملموس
مشعور به كلية ، يجب علينا في الآن عينه أن نعلم أن الله وإن كان
هو المحرك الأعظم للعالم لا يعتبره أرسطو هو الخالق والمبدع له ،
ولا بالمعنى الذى فيه الخلق يتفق وأزلية العالم ، لأن تأثير الوجود
الإلهي إنما هو فقط في أن يقود إلى تطور الصورة في مادة موجودة
من قبل بدون الله لا يمكن أن يكون هناك صورة أو ترتيب
وانتظام في الأشياء ولا بالقدر الموجود في تفصيل المادة إلى أربعة
اسطقسات . وكذلك المادة ^(١) الأولى هي أصل سابق على الأشياء
وركن خطير في عملية التكوين ، وليست أقل من الله في أنها شرط
متقدم على كل ما يحدث وأمر ضروري فيه .

من المشهور الذائع عن أرسطو والمعروف به أن الإله الذى

(١) هذه المادة عند القدماء دخلت في عبارات شتى منها الوجود
العام المنبسط والظل الممدود والعقل الاول والروح الأعظم الى نحو
ذلك . العرب .

يقول به بمنأى عن أن يقضى بوظائف عناية (أى لا يتدخل فى الشئون الجزئية) كما أنه بعيد من أن يكون خالقا ، وليست فاعليته مثل تلك الفاعلية التى يقول بها أفلاطون ، وهى التى تكون لمثل راع عظيم ، وبقدر ما يعنى بالعالم لا تكون وظيفة الله بالنسبة إليه إلا أنه يحرك شوقه واشتهاه وتوقه ، وأما سائر ما هنالك وما بعد ذلك ، فالفاعلية المتصلة المطردة التى لهذه الحياة (الإلهية) هى متجهة جملة إلى الباطن ، ويدعوها أرسطو خصوصا فاعلية الثبات وعدم الحركة ، وبأكثر دقة أنه ينبئنا بأنها فاعلية فكرية منصرفة بدون انقطاع وبقاء سرمدى إلى الموضوع الوحيد الكافى للتدرب على مشاهدة الله نفسه ، وحياته هى واحدة ذات مشاهدة ذاتية أبدية ، أو هى تفكير من الفكر عن نفسه فى داخل نفسه وهى ككل دربة وحنكة فاعلية غير معوقة ، ومخالفة للذة والغبطة ، وكما أن الفاعلية متصلة كذلك المتعة بها متصلة غير منفصلة فى أجل حال لنا حينما ننسى أنفسنا ونستغرق فى محض الفاعلية الشهودية التأملية للنظر العلى والاستحسان الجمالى (الإعجاب بالبهام) فأننا ندخل لزمن ما إلى هذه الحياة الإلهية ونقاسم سعادة الله ونضرب بسهم فى هذه البهجة والعزة والهزة ، بيد أن هذا هو موضوع بحث يتبين فى فصل لنا عن الأخلاق .

إنها لمى صرخة بعيدة ، صرخة من هذا لضرب من التصور عن إله غير متمم بعالم . إليه هو فقط ينسب على أنه موضوع شوقه

ينسب إلى الله الذي (هو رغم ذلك) يعنى^(١) حتى بسقوط عصفور
وعنه كتب « هكذا الله يلد العالم ، لكن لم يزل من الواجب على
علماء اللاهوت في القرون الوسطى أن يمزجوا بين التصورين ، إذا
لم يكن إله أفلاطون هو بالضبط الخالق فانه هو الآب والصانع
المصور لنا كلنا جميعا ، والذي يرقب مراقبة ذات عناية العالم الذي
صوره وصنعه ووقف نفسه . أجل وقف على أغراضهم غير أن
أفلاطون عد في كنيسة العصور الوسطى منكرا لبعث الأجساد
أما التوفيق والتأليف بين القول بالالوهية الأرسطية ، والقول
بالوهية المسيحية الأولى فقد جرى على يد تدبيرات منطقية عويصة
جدا ، بيد أن الإنسان لا ينفك عن رؤية التلفيقات حتى في القديس
توما ، بل لا ينفك عن أن يرى في تعاليم أرسطو نفسه العوز العادى
للتماسك والتوافق بين هوى أولى ضد لأفلاطون ورجوع أخير
نهائى إلى الآراء الأفلاطونية التى كان أرسطو بادىء ذى بدء مولعا
بالطعن عليها ولهاجا بتفنيدها وتفويق سهام التثريب إليها . انه نبأنا
لأول الأمر أن المثل والصور الأفلاطونية المفارقة التى هى أسماء
فارغة وألفاظا جوفاء خاوية ، وأن الشيء الشخصى الحقيقى هو دائما
مؤلف من هيولى وصورة لا محالة ، وأن الصورة توجد البتة في
هيولى ، ثم لم يلبث أن جاءنا أخيرا بنموذج من ذلك المفارق عينه ،

(١) العناية الموجبة في آخر الفقرة عناية الرئيس بالمرؤس بخلاف
السالية التى في صدر الفقرة . المعرب .

إذ في النهاية نلني أن مصدر ومبدأ كل العملية التي بها تصبح الهياكل
وقد صبغت بالصورة هو موجود ما عبارة عن صورة محضة ،
وحقيقة مفارقة صرفة موجود قائم خارج كل تطور وجوده ينشئه
وأصل تحذير أرسطو عن المجازات والاستعارات الشعرية
هو القول بأن الله يحرك العالم لكونه موضوع شوقه ومركز
عشقه وتوقه :

